

# الناصرية

## وبناء الدولة العصرية : قضية التعليم

بقلم أديب ديميري

وإذا كان الوطن العربي ، في كل ربوعه ، من الجزائر حتى بغداد ، قد خاض على الدوام معركته من اجل التعليم والثقافة القومية ، كجزء لا يتجزأ عن معركته ضد الامبريالية والاستعمار في مختلف صوره .. واذا كانت سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية على وجه الخصوص ، قد شهدت جهودا صادقة من جانب القوميين والوطنيين - ولعل من ابرزهم ساطع الحصري - لتحقيق تقارب وتعاون اوثق بين شعوبنا في مجال التعليم .. فان معركتنا الراهنة ، وهي بطبيعتها معركة صمود وشعوب ونفس طويل ، تفرض على الثوريين شحذ كل اسلحة الثقافة والعلم والتعليم .. وهي اسلحة تعبئة وحشد للقوى وقتال بالدرجة الاولى .

ولا شك ان الناصرية ، كتيار عربي وطني وتقدمي ، قد جسدت اهداف ثورتها في تطبيقات وانجازات هامة في الميدان التعليمي .. حجم هذه الانجازات ليس بالهين كما سنراه بالارقام ، ومع ذلك فقد صاحب الاصلاح التعليمي منذ بداية الثورة ، وانعكس في ميدانه صراع تيارات ، اجتماعي وطبقي حاد : في المثل والاهداف ، وفي القيم المسيطرة ، وفي ابعاد الاصلاح ومداه ، وفي مواقع الطبقات المختلفة منه واستفادتها به ولا يزال هذا الصراع قويا نشطا في مصر يفصح عن نفسه في صورة الجدل الذي لا يهدأ حول مسائل التعليم ، والضجة والقلق الشديدين اللذين يسيطران على الاباء والابناء عادة في بداية كل عام دراسي وفي منتهاه ، ويشدان الاهتمام القومي حتى في اخرج الاوقات .

والواقع ان قضية التعليم اكتسبت اهمية خاصة وطابعا مميزا بعد هزيمة يونيو بوجه خاص ، لالتحامها بالجدل حول اسباب الهزيمة ومقتضيات المواجهة الجديدة مع العدو ، وقد بدت هذه الهزيمة في بعض اوجهها ،

على رقعة الوطن العربي كله تبدو ثورة التعليم قضية ملحة .. ولا تكاد تهدأ المناقشات حولها حتى تثور من جديد .. وعلى خريطة هذا الوطن تبدو مفارقات ، ودرجات وطبقات بين العلم والامية .. ولكن الوطن كله .. يجمعه عطش ، هو بعض عطش صحاريننا السى العلم والمعرفة .. حتى تتحول الى حقول مزهرة .. وترتفع في آفاقها قوة العمل المنتج .

وليس موضوعنا قضية التعليم في العالم العربي . ولكننا سنحاول ان نقدم بعض ملامح التعليم في مصر منذ ثورة يوليو ، نموذج وتجربة هامة تحمل دلالات تتخطى في حقيقتها حدودنا الاقليمية ، وتعبورها الى الوطن الكبير .. وبل والى كل بلدان وشعوب العالم الثالث التي تخوض معركتها المريرة ضد الامبريالية .. وضد كابوس التخلف والفقر .

لسنا اذن بازاء نظام تعليمي بعينه يقوم في مصر ، بل تجربة من لحم ودم العالم الثالث كله .. وملامحها يرغم السمات الخاصة ، هي ملامح الثورة وابعادها في هذا العالم المضطرب . ولقد كان التعليم دائما اداة ثورة وتغيير ، كما كان ايضا اداة انتكاس وجمود ، ومن هنا فالصراعات حوله : حول اهدافه ونظرياته ونظمه وتطبيقاته هي بعض اوجه الصراع الاجتماعي المحتدم ، صراع الفلسفات والنظم . فالتعليم كأداة بشرية ، ليس من قبيل الالات ذاتية الحركة ، ولا يستمد قيمه وقيمه من ذاته ابداء ، ولا من نظامه كما يحلو للبعض ان يتوهم ، بل من اليد التي تصنعه وتحركه : يد الثورة او اليد المعادية لها ، وستظل اسباب النجاح والفشل ، التقدم او التخلف كامنة في طبيعة القوة المحركة من ورائه ، القوة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية ..

هزيمة للتخلف امام التفوق الساحق للعدو الامبريالي والصهيوني في العلم والتكنولوجيا ، كما بدا شرطا من شروط النصر عبور هوة التخلف وامتلاك وسائل العلم والتقدم .

وبصرف النظر عن قضية العلم والتكنولوجيا التي رأى فيها البعض العامل الحاسم سواء في الهزيمة او النصر على العدو - وهو رأي بعيد تماما عن الصواب ، يحجب الاسباب الحقيقية ، ومع ذلك فلا شك ان التعليم في عالم اليوم اضحى صناعة ثقيلة واستراتيجية ، يقع في صميم قضايا الثورة والتقدم ، ومن ثم كل هذا الصراع حوله في بلدان العالم الثالث . وهو صراع يدور بين مجموع الطبقات الوطنية من جانب ، والطبقات القديمة المخلوعة وجيوب الامبريالية ، كما يقع ايضا بين الاجنحة المختلفة في الثورات الوطنية التحريرية ، خاصة ضد الاجنحة اليمينية والطبقات الجديدة والبيروقراطية والتكنوقراطية والاغنياء الجدد التي اصبحت وباء في العالم الثالث .

وما نحتاج اليه هو حوار صادق بين مختلف قوى الثورة العربية الوطنية التقدمية، على امتداد تيارات اليسار المعادي للامبريالية، داخل كل بلد عربي، وعلى صعيد الوطن العربي في التعليم (١)، كما هو في الفكر والثقافة والسياسة من اجل لقاء اعمق ووحدة بين هذه القوى ، وهو ما نراه شرطا لازما للنصر .

## الدولة العصرية

منذ ان اعلنت الثورة سنة ٥٢ مبادئها الستة ، وهي في الاساس معادية للاستعمار والافطاع والرأسمالية العميلة ، كانت تعني في المضمون محاولة اقامة الدولة العصرية التقدمية مكان الدولة التابعة والافطاعية المتخلفة .

وقد كان مطلب التعليم ، وهو مطلب عريق لدى الجماهير الشعبية ، يجمع كل الطبقات الوطنية ابتداء من البورجوازية المصرية النامية حتى الفلاحين . كان حلم محمد علي وادائه الاولى في خلق دولته الحديثة كما ارادها . وظل مطلبها اساميا واداة في يد البورجوازية المصرية في كل مراحل نورتها . كان كذلك عند الثوريين العربيين في النصف الثاني من القرن الماضي ، ثم الحزب الوطني وفادنه مصطفى كامل ومحمد فريد في مطلع القرن العشرين امتدادا الى ثورة ١٩ وما تلاها من سنين حتى صياغته الليبرالية الواضحة على يد طه حسين ( التعليم كالماء والهواء ) . وجهاهير الطبقة العاملة لم تكن نقل نزوعا ولا الحافا في هذا المطلب ، حتى ان كرومر نفسه يعترف بعد جولانه في قرى مصر وربوعها ، انه ليس هناك مطلب اكثر ترددا على السنة الفلاحين المصريين من مطلب التعليم ، كافة طبقات الثورة المصرية المعادية للاستعمار يجمعها هذا المطلب ،

(١) راجع بعض هذه التيارات والافكار التربوية والتعليمية في :  
- معالم الفكر التربوي في البلاد العربية في المئة سنة الاخيرة  
الفكر العربي في مائة عام - بيروت  
- مستقبل التربية في العالم العربي - جميل صليبا - بيروت

وكان حلم الدولة العصرية ، المتقدمة والنامية ، والقضاء على التخلف هو السمة البارزة في ثورة يوليو منذ بدايتها ، عبر عنه بوضوح كتاب « فلسفة الثورة » وهو ناملات في عناصر الضعف والهزيمة والتخلف ، وبحث عن اسباب القوة وطريق الافلات من هذا التخلف .

اما الميثاق فهو يقدم صورة اكثر تحديدا .. كما يبلور اهداف التعليم لبناء الدولة الحديثة بصورة اكثر وضوحا :

( ان اجيالا متعاقبة من شباب مصر لغنت ان بلادها لا تصلح للصناعة ولا تقدر عليها .

( ان اجيالا متعاقبة من شباب مصر فرأت تاريخها الوطني على غير حقيقته ، وصور لها الابطال في تاريخها ناهين وراء سحب من الشك والقهوض ، بينما وضعت هالات التمجيد والاكبار من حول من خانوا كفاحها .

( ان اجيالا متعاقبة من شباب مصر انتظمت في سلك المدارس والجامعات والهدف من التعليم كله لا يزيد عن تحريج موظفين يعملون للانظمة القائمة ونحت فوائنها ولوائجها التي لا نابه امصالح الشعب دون اي وعي لضرورة تغييرها من جذورها ونمزيها اصلا واساسا .

( ان التعليم لم يعد غايته تخريج موظفين للعمل في مكاتب الحكومة . ومن هنا فان مناهج التعليم في جميع الفروع ينبغي ان تعاد دراستها بوريا لكي يكون هدفها هو تمكين الانسان الفرد من القدرة على اعادة تشكيل الحياة .

( ان العلم هو السلاح الحقيقي للارادة الثورية ، ومن هنا الدور العظيم الذي لا بد للجامعات وراكرز العلم على مستوياتها المختلفة ان تقوم به .

( العلم هو السلاح الذي يحقق النصر الثوري .

( ان مسئولية الجامعات ومعاهد البحث العلمي في صنع المستقبل لا نقل عن مسئوليات السلطات الشعبية المختلفة .

( ومن هذا النصور فان الجامعات ليست ابراجا عاجية ، ولكنها طلائع متقدمة تستكشف للشعب طريق الحياة .

( ان قدرتنا على التمكين من فروع العلم المختلفة هي الطريق الوحيد امامنا لتعويض التخلف .

( ان الامم التي ارغمت على التخلف ، اذا ما استطاعت ان تبدأ الان معتمدة على العلم المتقدم ، تضمن لنفسها نقطة بداية تفوق النقطة التي بدأ منها الذين سبقوها الى المستقبل .

( ان المشاكل الاقتصادية والاجتماعية الكبرى التي يتصدى شعبينا اليوم لمواجهتها لا بد لها من حلول علمية .

هذه هي اهداف بناء الدولة العصرية كما بسطها الميثاق ، بقى ان نرى ماذا تم في التطبيق ؟!

## الانجازات والابعاد الكمية

نعتذر للقارئ بداية عن كثرة الارفام ، ولكن لا حيلة لنا في الامر . فليتنا ان نتبع الصورة الرقمية في شمولها ، وفسى تفاصيلها ايضا . ونبدأ بجداول يبين تطور اعداد التلاميذ والطلاب في جميع مراحل التعليم خلال سني الثورة . وقد اخترنا السنوات ذات الدلالة . فحتى سنة ٦٠ سجلنا التطور سنويا تقريبا ، ثم ما بين ٦٠ - ٦١ - ٦٥ - ٦٦ وهي سنوات الخطة الخمسية الاولى للتنمية ذات الاهمية الخاصة ، ثم التطور حتى نهاية سنة ٩٦٩ .

المراحل	٥٢-٥١	٥٤-٥٣	٥٥-٥٤	٥٧-٥٦	٥٨-٥٧	٥٩-٥٨	٦١-٦٠	٦٦-٦٥	٦٩-٦٨ (١)
الابتدائي	١٤٤٩١٤٤٥٧	١٤٣٩٢٧٤١	١٤٥٨٠٤٠٨٩	١٤٩٧٥٤٨٧٤	٢٤٠٨٦٤٧٠٤	٢٤٢٨٦٤٠٦٧	٢٤٦١٠٤٦٦٩	٢٤٤١٧٤٧٠٣	٢٤٥٥٠٤١١٩
الإعدادي	٢٤٨٥٧٤	٢٤٦٧٣٣٦	٢٤٦٧٣٣٦	٢٤٦٧٣٣٦	٢٤٦٧٣٣٦	٢٤٦٧٣٣٦	٢٤٦٧٣٣٦	٢٤٦٧٣٣٦	٢٤٦٧٣٣٦
القانون العام	١٥٩٧٩٧٧	٩٥٢١٠	١٠٩٧١١	١١٣٧٣٩	١١٥٠٣١	١٢١٨٤٥	١٤٠٥٢٤	٢٠٨٩٩١	٢٧٦٠٧٥
القانون الفني	٢٢١٨٦	١٥٥٦٦	١٤٠٢٦	٢٤٨٥٤	٢٤٥٥٩٩	٤٣٧٧٥	٦٧١٨٦	١٠١٤٢٠٤	١٩٧٠٥٤
الجامعي	٣٥٠١٦	٥٠٤٩٥	٥٤٩٧٨	٦٣٤٥٤	٧٢٨٧٠	٧٦٦٣٨	٨٦٥٢٩	١٤٠١٤٣	١٤١١٦٠
معاهد عليا	١٥٢٠	٤٨٧١	٦١٢٥	٦٤٤٥	٧٤٤٧	٩٧٨٥	١٥٥٢٠	٣٢٢٨٣	٢٩٩٧٣

مختلف المراحل التعليمية بين بداية الثورة ونهاية الخطة الخمسية

وحسب تقديرات الجهاز المركزي للإحصاء فان معدل الزيادة في الأولى كالآتي : (٢)

الأيديولوجية والفكر الذي قام عليه صرح التخطيط في التعليم وفي أعداد القوى العاملة ، كما قام عليه خطة التنمية كلها ، وستعود اليه بعد قليل ، فان مجرد الأخذ بمفاهيم التخطيط والبرمجة ومحاولات ربط التعليم بهياديين الإنتاج وحقوقه ، كان يعني انقلا من مفاهيم الجورجوازية الليبرالية التقليدية في الثقافة والفكر والتعليم . وقد انعكس هذا واضحا في اتجاهات التوسع التعليمي والجهود التي بذلت من أجل توفير القوى العاملة الفنية والعلمية في مختلف المستويات ابتداء من العامل الماهر إلى مستوى الفنيين والعلميين وكان هذا وجها بلا شك لاحتدام المعركة مع الاستعمار ، واتجاهات التحرر الاقتصادي والتصميم وبناء الاقتصاد الوطني المستقل خاصة بعد هزيمة عدوان ٥٦ .

ويكفي ان نتبع اتجاهات التوسع الكمي في مختلف مستويات التعليم الفني الثانوي ومراكز التدريب المهني ، وفي اتجاهات توزيع الطلاب في المستوى الجامعي والعالي بين الكليات والمعاهد النظرية والعملية . فقد بلغت الزيادة في تلاميذ التعليم الفني بوجه خاص في ٦٥ - ٦٦ ستة امثال ما كان عليه العدد ٥٣ - ٥٤ كما ارتفعت نسبة التلاميذ في التعليم الفني إلى مجموع التلاميذ من ٤٧ بالمائة عام ٥٣ - ٥٤ إلى ١٦٤ بالمائة عام ٦٥ - ٦٦ (٤) . هذا إلى جانب التخصصات والاقسام الفنية العديدة التي ادخلت في خطط هذه المدارس وبرامجها .

وكان التطور في الجامعات على الوجه التالي : (٥)

عدد الطلاب	السنوات	في الكليات النظرية	في الكليات العملية
١٧٤٧٢٢	٥٣ - ٥٤	٣٦٤٣٦٧	١٧٤٧٢٢
٣٤٤٠١٧	٦٠ - ٦١	٥٨٤٢٧٥	٣٤٤٠١٧
٦٥٤٢٥١	٦٥ - ٦٦	٧١٤٢٢٩	٦٥٤٢٥١
٧٠٤٠٤٥	٦٧ - ٦٨	٦٨٤٥٧٣	٧٠٤٠٤٥
		الخريجين	
١٨٢٠	٥٣ - ٥٤	٣١٢٩	١٨٢٠
٣٤٦٣	٦٠ - ٦١	٦٧٨٧	٣٤٦٣
٧٦٢٣	٦٥ - ٦٦	١٠٤٣٥	٧٦٢٣
٩٢٦٠	٦٧ - ٦٨	١١٤٧٩	٩٢٦٠

(٤) زيادة السكان في ج.ع.م - الجهاز المركزي للإحصاء ١٩٦٦

(٥) الكتاب السنوي للإحصاءات - الجهاز المركزي ١٠٦٧

مرحلة التعليم	عدد التلاميذ في عام	عدد التلاميذ في عام	معدل الزيادة خلال الفترة
التعليم الابتدائي	١٣٩٢	٢٤١٨	١٤٥
التعليم الإعدادي العام	٣٤٩	٥٧٤	٦٤
التعليم الثانوي العام	٩٢	٢٠٩	١٢٧
التعليم الثانوي الفني	١٩	١٠١	٤٣٢
الكليات الجامعية	٥٤	١٢٤	١٣٠
الجملة	١٩٣٤	٤٥٠٢	١٣٢

ومعنى ذلك زيادة عدد التلاميذ في جميع المراحل بمعدل ١٣٢٪ في حوالي اثني عشر عاما .

ومما له دلالة هامة تطور نسبة الاستيعاب في التعليم الابتدائي الاجباري بالقياس إلى من هم في سن الالتزام . ونسجل التقديرات الرسمية التطورات التالية : (٣)

السنوات	عدد الأطفال في سن الالتزام	عدد المتفدين في المدارس	النسبة	النسبة
٥٤-٥٣	٣٢٥٣	١٥٠٢٤٤	٤٦٤٠	٣٤٤٧
٥٥-٥٤	٣٣٢٣	١٧٥٤٤٥	٥٢٤٧	٣٩٤٠
٥٦-٥٥	٣٣٩٣	٢٠١٥٤١	٥٩٤٣	٤٣٤٦
٥٧-٥٦	٣٥٤٠	٢١٢٥٤٠	٦٠٤٠	٤٤٤٨
٥٨-٥٧	٣٦١٤	٢١٩٩٤٧	٦٠٤٩	٤٥٤٨
٥٩-٥٨	٣٦٨٩	٢٢٨٦٤١	٦٢٤٠	٤٧٤٤
٦٠-٥٩	٣٧٥٤	٢٤٥٢٤٤	٦٥٤٣	٥٠٤١
٦١-٦٠	٤٣٠٠	٢٦١٠٤٢	٦٠٤٧	٤٦٤٧
٦٦-٦٥	٤٩٠٧	٣٤١٧٤٨	٦٩٤٧	٥٥٤٧

ولا شك ان من ابرز سمات التطور التعليمي ارتباط التعليم بخطة التنمية وبرامج أعداد القوى العاملة المدربة ، وهو ما يخرج بالتعليم عن حيز المفهوم الليبرالي ، باعتباره مجرد ثقافة وتثوير من أجل الثقافة إلى ان يصبح قوة انتاجية وجزءا لا يتجزأ عن بناء الدولة النامية المتقدمة في عصر الثورة العلمية والتكنولوجية . وبصرف النظر عن

(١) مرجعنا إحصاءات وزارة التربية والتعليم والجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء

(٢) زيادة السكان في ج.ع.م وتحدياتها للتنمية . الجهاز المركزي للإحصاء سنة ١٩٦٦ .

(٣) زيادة السكان في ج.ع.م وتحدياتها للتنمية - الجهاز المركزي للإحصاء ١٩٦٦ .

وحتى تكتمل صورة الانجازات والتطورات الكمية في التعليم نختم بالميزانيات وتطور الانفاق على التعليم :

ويقدر الانفاق المحقق في الخدمات التعليمية في سنة الاساس ٥٩ - ٦٠ في الخطة الخمسية الاولى ٦٤٤ مليون جنيه ، ارتفع الى ١٥٠٦٦ مليون جنيه في السنة الخامسة من الخطة بزيادة حسب هذا التقدير نسبتها ٦٤٧ بالمئة (١) .

السنة	ميزانية وزارة التربية والتعليم	نسبة ميزانية الوزارة (٢)
٥٢ - ٥٣	٢٥٤٢١٧٠٠٠	١٢٤٢٤ بالمئة
٥٧ - ٥٨	٣٨٥٥٠٠٠٠٠	١٤ بالمئة
٥٩ - ٦٠	٤١٤٢٣٢٠٠٠	١٣٤٣ بالمئة
٦٥ - ٦٦	١٠٦٤٤	

وتطور ميزانية الجامعات له دلالة الخاصة (٣)

السنة	ميزانية الجامعات	النسبة المئوية
٥١ - ٥٢	٣٤٩٨٢٤٤٦٢	١٤٧٢ بالمئة
٥٧ - ٥٨	٧٤٨٠٨٤٥٠٠	٢٤٧٧ بالمئة
٥٩ - ٦٠	٨٥٧٦٩٤٠٠٠	٢٤٥٣ بالمئة
٦٣ - ٦٤	١٤٤٩٧٠٣٠٠	١٤٦٥ بالمئة

### الخدمة التعليمية لمن ؟ . التوزيع الطبقي

فياض حجم التعليم ، وتطوره الكمي له اهميته الكبيرة في كل بلدان العالم الثالث التي تقاوم ضد تراث التخلف والجهود . والتطور الكمي في ذاته له دلالة الاجتماعية والطبقية والسياسية ، لان الاستعمار والطبقات الرجعية القديمة والرأسمالية العميلة ، كانت تقم كل السود في وجه انتشار الثقافة والتعليم في كافة مستوياته . والمكاسب المحدودة التي تحققت بعد الحرب العالمية الثانية في بعض البلدان التابعة انتزعت بشق الانفس وبضغوط وبصراع مرير من جانب الطبقات الشعبية والوطنية ، وكجزء من حركتها الوطنية التحريرية . اما التقدم المأموس الذي تحقق في البلدان الوطنية الفتية في العالم الثالث ، فقد تحقق على يد طبقات اخرى ثورية وتقدمية . ولكن مستقبل الثورة في هذه البلدان ، ونامين مسيرتها وتقدمها في مواجهة الامبريالية والثورة المضادة ، رهن بمفرطة الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية والتعليمية فيها ، وحصول الجماهير الشعبية على نصيبها العادل المعبر عن دورها الحاسم في بناء الدولة العصرية ذات المضمون الثوري والتقدمي .

ومن هنا فلا يكفي ابدأ ان نتابع حركة الكم في التعليم او في اي ميدان اخر ، كما نفعل اجهزة الاعلام عادة في هذه البلدان ، بل يتعين فحص المضمون الطبقي لهذه الخدمة وانجاهات توزيعها . ذلك هو المعيار الحقيقي لتطور الحركة الثورية في اي بلد من البلدان . وحتى يصبح التعليم اداة تغيير ونورة حقيقية ، فلا بد ان يوضع في يد طبقات صاحبة المصلحة ، والقادرة على التصدي للجهود والتخلف ، وهو المضمون الحقيقي لديموقراطية التعليم ، ولتكافؤ الفرص ، ولكل الشعارات التي تسعى الطبقات الرجعية القديمة والجديدة الى ترفيقها من كل مضمون طبقي .

والامر الطبيعي ان البيانات والاحصاءات ، وحتى البحوث

١ - سنوات التحول الاشتراكي وتقييم الخطة الخمسية الاولى - علي صبري .

٢ - تاريخ ونظام التعليم في ج.ع.م تأليف د. رشدي لبيب وزملائه . زيادة السكان في ج.ع.م - الجهاز المركزي .

٣ - التعليم العالي في ١٢ سنة ج.ع.م - وزارة التعليم العالي

الأكاديمية التي تتابع هذا التطور والتوزيع الطبقي واتجاه الخدمة التعليمية ، تكاد تكون معدومة ، بل ولا تخطر للدارسين والباحثين على بال . ومع ذلك فسنلجأ الى بعض المؤشرات التي تنبئ عن الاتجاه وتعطي بعض الدلالات .

ونبدأ بتوزيع الشهادات الدراسية والتأهيل الفني على السكان كما تدل عليه الاحصاءات الواردة بتعداد ١٩٦٠ وهو اخر ما لدينا في هذا الشأن ، على الاول من ناحية المنشور والمداع .

توزيع السكان حسب الحالة التعليمية والنوع في تعداد ١٩٦٠ (للافراد ١٠ سنوات فأكثر)

( بالالف )	جملة	اناث	ذكور	الحالة التعليمية
(٤)	١٢٥٨٨	٧٥٣٩	٥٠٤٩	اممي
	١٣١	٤٢	٨٩	يقراً فقط
	٣٩٢٣	١٠٨٤	٢٨٣٩	يقراً ويكتب
	٣٠٢	١٠٢	٢٠٠	مؤهل أقل من المتوسط
	٢٤	٧	١٧	مؤهل فوق المتوسط
	١٣٠	١٥	١١٥	وأقل من الدرجة الجامعية
	١٠	١	٩	الدرجة الجامعية الاولى
	٢	٠	٢	او ما يعادلها
	٣	٠	٣	دبلوم ممتاز
	١٢٩	٧٧	٦٢	ماجستير
	١٨٠٥٣	٩٠٦٨	٨٩٨٥	دكتوراه
				غير معين
				جملة

ولا شك ان الصورة اليوم ، وبعد مضي عشر سنوات على هذا الاحصاء تختلف كثيراً ، خاصة بعد تقرير المجانية سنة ٦٢ ، ووصول الخدمة التعليمية وفي اعلى المستويات الى الاقاليم ، والى فئات فقيرة ، وأحياناً حتى الى ابناء بعض المدميين في القرية والمدينة . ومع ذلك ، فهذا الاحصاء لا يفقد قيمته او دلالة ، حتى لو اخذنا على انه الارضية والتركة التي ورثناها من الماضي ، ونقطة البداية في قياس حركة الحاضر .

ولا يصعب تحديد الدلالة الطبقي لهذا التوزيع في مستويات التعليم والتأهيل ، كما لا يصعب تحديد ابناء من هم الاميون ؟ او الذين يقفون عند حدود الامام بالقراءة والكتابة ؟ او حملة المؤهلات الجامعية او ما فوقها ، ونصيب ابناء العمال والفلاحين والطبقات الشعبية من هذا كله .

والحقيقة ان دلالة هذه الاحصائية على مستوى الاعداد والتأهيل العلمي والفني للكثرة الغالبة من القوى العاملة المنتجة ، في الريف والمدينة ، قد يكون هو الامر الاخطر ، وأي مقارنة بين هذا الاعداد ومستواه ومثله في الطبقات العاملة والمنتجة في البلدان المتقدمة ، يكشف عن مدى هوة التخلف ، وما تعنيه بالنسبة للانتاج ، ولقضية تطوير القوى الانتاجية ، وهي بعينها قضية الثورة في البلدان المتخلفة .

والان فان متابعة حركة التعليم والتأهيل في مستوياته المختلفة ، بعد هذا التاريخ في الريف والمدينة ، والمقارنة بين المدن الكبرى والصغرى ، والمحافظات الغنية والفقيرة يكشف لنا في الحقيقة عن اتجاه الخدمة التعليمية ، ومدى وصولها الى الكتلة الكبيرة من الشعب المنتج من العمال والفلاحين والفئات الصغيرة ، ومدى مساهمة تحقق لكتلة الشعب العامل من المعرفة والعلم في المستوى السذي يستحيل بدونه انجاز الثورة العلمية والتكنولوجية وعبور هوة التخلف .

٤ - الاحصاء السنوي للجيب ١٠٦٢

الرفيعة ، يكاد يكون متعذرا الا في القليل لغير ابناء القادرين من بورجوازية وابناء الطبقات الجديدة بالخاص .

وتزيد الصورة اكتمالا بالتعليم الخاص والدور الذي يقوم به في التعليم ، وهو لا يخرج عن كونه في بعض فطاعته انتهاكا صارخا لمبدأ المجانية وتكافؤ الفرص ، وتأكيدا للتمايز الطبقي وتعميقا له وتكريسا . والواقع ان التعليم الخاص بمصروفات في مصر يشمل ثلاثة انواع : نوع يقوم به الاتحاد الاشتراكي عن طريق فتح فصول مسائية ملحقة بالمدارس في مقابل اجر زهيد ، وهو نوع مفيد حقا ، يساهم في توسيع فرص التعليم ، ويستفيد منه في الاغلب ابناء الفئات المتوسطة الصغيرة والعمال في المدن ، وهو نموذج للخدمة الطيبة والمفيدة وان كانت تحتاج الى تحسين وتطوير ، وهي تتيح فرصا للطبقات الشعبية فد تقصر عنها امكانيات الدولة والوضع السائد في التعليم .

ونوع ثان من هذا التعليم ، هو ضرب من التجارة الرخيصة ، ضحاياه عادة من ابناء الفئات السابقة في الاغلب ، وهو نوع رديء ومنحط من التعليم ، عانده نأفه ، وضرره كبير ، لانه يقوم على استغلال المعلمين والطلاب ، لا يتيح فرصا حقيقية للنجاح او التقدم في التعليم ، ولكن الفئات البورجوازية الصغيرة وحيانا العمال تضطر الى الالتجاء اليه بعد ان تضيق في وجه ابنائهم فرص التعليم . اما النوع الثالث فهو اخطرها ، وهو قطاع طبقي صارخ على رأسه مدارس اللغات ، التي تصل المصروفات في بعضها الى حوالى ١٠٠ جنيه ، والمدارس القومية ، وكلاهما يتبع للأسف نقابة المعلمين!! ومدارس اللغات هي في الحقيقة وريثة كليات فكتوريا والمدارس الاجنبية المميزة للغة التي كانت تعد ابناء الطبقات القديمة لأرفع المناصب ، وقد استولت عليها في الحقيقة الطبقات الجديدة المسيطرة وحولتها الى تعليم مميز مترف يؤدي نفس الغرض القديم ، ينيح لابنائها فرصا تقصر عنها مدارس الدولة عادة .

وتطور نسب الالتحاق بمدارس التعليم الخاص بمصروفات بالمرحلتين الاعدادية والثانوية خاصة في الستينات بكشف عن تمسك فئات البورجوازية كبيرها وصغيرها بالتعليم كوسيلة للامتياز الطبقي ودورها من اي محاولات لتضييق فرص القبول خاصة بانواع التعليم النظري الراقى ورفضها محاولات توجيه التعليم وجهة عملية فى التعليم الفني الذي لا زالت تنظر اليه نظرة احتقار . وارتفاع نسبة الالتحاق بمدارس اللغات والمعاهد القومية المميزة التابعة للنقابة ، وعلى وجه الخصوص في الستينات يمشى مع ازدهار الطبقة الجديدة وفئات الفنيين والتكثرفراط التي تولت مراكز السلطة والتوجيه في القطاع العام وأرادت ان تضمن لابنائها افضل الفرص ، وأجود تعليم .

نسبة المقيدون بالتعليم الخاص بمصروفات الى جملة المقيدون بالمرحلة

النسبة المئوية للمقيدون للمقيدون بالتعليم الاعداى بالتعليم الثانوى الخاص بمصروفات	النسبة المئوية للمقيدون للمقيدون بالتعليم الاعداى بالتعليم الثانوى الخاص بمصروفات	السنة الدراسية
١٤٥ بالمائة	٤٤٦ بالمائة	٥٦ - ٥٧
٤٤٦ بالمائة	٧٤٢ بالمائة	٥٧ - ٥٨
٦٤١ بالمائة	١٢٤٣ بالمائة	٥٨ - ٥٩
٧٤٤ بالمائة	١٦٤١ بالمائة	٥٩ - ٦٠
١٠٤٢ بالمائة	٢١٤٠ بالمائة	٦٠ - ٦١
٩٤٨ بالمائة	٢١٤٩ بالمائة	٦١ - ٦٢
١٠٤٥ بالمائة	٢٢٤٦ بالمائة	٦٢ - ٦٣
١٢٤٩ بالمائة	٢٥٤٢ بالمائة	٦٣ - ٦٤

احصاء مقارن لعدد التلاميذ بالابتدائي لكل الف من السكان (١) بالمحافظات المختلفة (اخترنا بعض المحافظات ذات الدلالة)

عدد الاطفال	عام ١٩٦٢ - ٦٣	عدد التلاميذ نسبتهم من ٦٣-٦٤	المحافظات
المقارن لكل الف من السكان	للكل الف عدد المزمين		
١٤٠٤٤	٨٤٤٦	١٦٦	القاهرة
١٤٣٤٣	٨٢٤٨	١٧٣	الاسكندرية
١٢٠٤٢	٦٩٤٩	١٧٢	طنطا
٧٦٤٣	٤٢٤٤	١٨٠	كفر الشيخ
٩٩٤٠	٥٨٤٦	١٦٩	الزقازيق
٨٣٤٧	٥٦٤٢	١٤٩	المنيا
٨٨٤٣	٥٥٤٥	١٥٩	اسيوط
٧٣٤٠	٤٥٤٦	١٦٠	سوهاج
٦٥٤٩	٤٢٤٥	١٥٥	قنا

فاذا تابعنا السلم التعليمي كانت هذه الفروق اكثر وضوحا :  
توزيع التلاميذ بمراحل التعليم وانواعه بالمحافظات

عدد التلاميذ لكل الف من السكان ٦٣ - ٦٤ (٢)

الاعدادي العام	الثانوي العام	الثانوي الفني	القاهرة
٢٧	١١	٥٥٥	الاسكندرية
٢١	١٠	٥٤١	دمهور
١٠	٢	١٤٨	طنطا
١٤	٤	٣٤٥	كفر الشيخ
٩	٢	١٤٢	الزقازيق
١٤	٤	٢٤١	الجيزة
١٥	٧	٢٤٩	الفيوم
٨	٢	٢٤١	بني سويف
١٠	٣	٢٤٧	المنيا
٨	٢	١٤٩	اسيوط
١٠	٣	٢٤٢	سوهاج
٧	٢	١٤٦	قنا
٧	١	١٤٠	اسوان
٧	٣	٣٤٧	المتوسط العام
١٤	٥	٣٤٠	

ودلالة هذه الارقام ليست مجرد فروق بين القرية والمدينة او بين المحافظات الحضرية والريفية كما تصور الاحصاءات التقليدية، بل هي دلالة طبقية في الاساس . فلا شك ان هيمنة القاهرة والاسكندرية وفوزهما بنصيب الاسد من الخدمة التعليمية ، خاصة اعلاها ، والفروق الشاسعة بين المحافظات الحضرية والريفية ، الفنية والفقيرة ، يكشف عن حقيقة الطبقات المنتفعة بالتعليم . فالفائز بكل الفرص في المدينة هم ابناء البورجوازية في الاساس كبيرها وصغيرها . اما الطبقة العاملة وابنائها فتشقى طريقها بشق الانفس، اما الكتلة الساحقة من الفلاحين فلا زالت كما هي الى حد كبير مهضومة الحق .

ويؤكد هذه الحقيقة تركيب الهرم التعليمي ، والقمة الضيقة جدا بالقياس الى القاعدة . ففي ظل الاوضاع السائدة في التعليم ، والتدهور الشديد في مستوى التعليم الابتدائي ، ووجود حواجز قوية بين مراحل التعليم ، تتمثل في الامتحانات المسيرة ، والتي يتعذر النجاح فيها والتفوق الا عن طريق الدروس الخصوصية الباهظة التكاليف ، فان اجتياز هذه الحواجز ومواصلة التعليم حتى مستوياته

١ - دراسات وبحوث احصائية ١٩٦٥ ج.ع.م وزارة التربية والتعليم

٢ - المرجع السابق

٣ - دراسات وبحوث احصائية - ج.ع.م وزارة التربية والتعليم ١٩٦٥

العاملة المنتجة المتعشة الى النور والمعرفة والتي تحس بوطاة الامية والجهل . . ومن هنا التفت حول هذا شعار بالذات اوســــــــــــــــع الجماهير .

اما التيار الاخر فقد صاغ نظريته مرباً له تاريخه الثوري في التعليم ابان ثورة ١٩ وفي العشرينيات ، وله مساهماته الإصلاحية المقدمة في تلك الفترة في ميدان الفن التربوي وتطبيقه وطرقيه ووسائله الحديثة ، ونعني به اسماعيل القباني . ولكن هذا المربي كان ينتمي الى تلك الفئة من المثقفين والوظفين المصريين ، النسبي انزلت عن تيار الحركة السياسية الوطنية ، وانفلتت على فنهــــــــــــــــا وممارساتها التربوية ، وتجاربها التي نخلت ان فيها علاجاً لكل ادواء التخلف . هذا التيار لعزله وبعده عن المعتزك السياسي وانحصاره

داخل اطار فنه التربوي خطف ابعاره الوافد الجديد الامريكسي بمبادئه التي تقدم بها الى الشعوب بعد الحرب الثانية ، وقبل كل شيء بنظرياته وتطبيقاته التربوية المتقدمة ، وسطوة فلسفة جونزديوي بالذات البراجماتية في الميدان التربوي . ارتبط فكره وفنه بقوة بهذا الوافد الجديد ، وتبنى بالكامل النظريات البراجماتية فســــــــــــــــي الفلسفة والتربية ، بعيداً عن الاهتمام او الوعي الواضح بالاهداف القومية ، ومتطلبات الثورة الوطنية . ومن هنا كون هذا التيار نواة الفيين والتكوقراط التربويين المنعزلين ، وسقط هو ومدرسته فريسة سهلة في يد الطبقات الرجعية العميلة وأحزاب السراي التي لم يكن في مقدورها في الاربعينيات والخمسينيات ابان تصاعد المد الوطني ان تعبر عن آرائها التعليمية بصراحة . ولذلك وجدت فســــــــــــــــي فلسفة القباني واتجاهاته مطية سهلة . كانت شعاراته : الكيف فيل الكم ، والطرق والوسائل التربوية والتجارب الجديدة بدل السياسة . . واصبح هذا التيار اليميني هو القطب المقابل لظه حسين الوطني والتقدمي والشعبي ، وتلخصت المعركة بينهما في : الكم ام الكيف في التعليم . . وكانت في حقيقتها تعني : هل التعليم للشعب ، ام للصفوة المتنازة . . هل هو اداة ديموقراطية ، ام اداة تركزس للامتيازات الطبقية ؟

كان هذا وجه المعركة في التعليم عندما قامت ثورة يوليو . وقد تولى اسماعيل القباني وزارة التربية والتعليم في سبتمبر سنة ١٩٥٢ ، بعد الثورة بشهور ، وظل بها حتى يناير سنة ١٩٥٤ ، ولعل توليه كان لاكثر من سبب : فبرغم اهداف الثورة الوطنية والمعادية للاستعمار والاقطاع منذ البداية ، إلا انها لم تكن تملك ايدولوجية وفكراً واضح المعالم ، ولا نظرة اجتماعية مستنطقية ، بل كان يسود بعض قاديها اتجاهات فكرية يمينية قوية خاصة في ميدان الفكر والتطبيق الاجتماعي ، وفي النظر الى حركة الجماهير الشعبية ، مما يلتقي واتجاهات القباني ، ولعل من ابرز المعبرين عن هذا الفكر اليميني والمحافظ كمال الدين حسين الذي تولى هذه الوزارة فيما بعد ، وخلف تراناً رجعيًا عميقاً داخل الوزارة يحتاج اقتلاعه الى جهــــــــــــــــد كبير . ولعل الصعوبات الاقتصادية والمشاكل في بداية الثورة ، كانت مما لا يتحمل اتجاهات ظه حسين وسياسته الشعبية الليبرالية في التعليم ، وكانت افكار القباني واتجاهاته للحد من التوسع في التعليم اقرب مثلاً .

لم يكد اسماعيل القباني يتولى الوزارة حتى شرع فوراً فســــــــــــــــي محاولة ازالة كل آثار سياسة ظه حسين ، وفي وضع القوانين واللوائح والنظم التي جسدت كل فلسفته : (١)

في قانون سنة ١٩٥٣ وحد القباني المدرسة الابتدائية الالزامية لجميع الاطفال ، وهو شرط ضروري من شروط ديموقراطية التعليم ،

ان الصورة العامة لتوزيع الخدمة التعليمية واتجاهاتها ، في كل مستويات التعليم وأنواعه ، ليست الى تقرب الفوارق بين الطبقات ، ولا تقرب الفوارق بين العرية والمدينة ، ولا الى الارتفاع بثقافة الشعب العامل في الحقل والصنع الى مستوى متطلبات الانتاج الحديث ، واطلاق طاقاته الخلاقة ، وهو شرط تحقيق الثورة في القوى الإنتاجية . الاتجاه على العكس يخدم تركزس الفسروق الطبقية ، وتأكيد التمايز الطبقي عن طريق التعليم لابناء البورجوازية وبالأخص فئانها الجديدة من الفنيين والتكوقراط والبيروقراطيين والاغنياء الجدد .

## الصراع في التعليم

لقد كان التعليم دائماً ابداً محلاً لصراع لا بهدأ ، ويحتل حيزاً ليس بالقليل في الصراع الوطني والاجتماعي والسياسي منذ فجر الثورة المصرية . لقد اراده كرومر سلاحاً في يده لتوطيد السلطة البريطانية ، وحجب المعرفة عن الكتلة الساحقة من الفلاحين والعمال ، وخلق فئة من الموظفين محدودي الأفق والتابعين ، أما البورجوازية المصرية الثورية فقد جعلت منه سلاحاً في يدها ضد المستعمر ، ولتأكيد قيادتها للحركة الشعبية الثورية ، وتطلعت اليه البورجوازية الصغيرة بالذات في ظل حكم الاستعمار والاقطاع والرأسمالية ، وسيلته ليس غيرها وسيلة للصعود في السلم الاجتماعي ، وللامتياز عن طريــــــــــــــــق الشهادات والاوراق ، حيث تعز وسيلة الارض والمال والثروة . ومن هنا التقى في الحقيقة هدفان متعارضان ، هدف الاستعمار في خلق فئة الموظفين المميزة والتابعة من حملة الشهادات ، وهي اوراق توسع الهوة بينهم وبين جماهير الشعب الواسعة ، هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى هدف فئات واسعة من البورجوازية التي لم تكن ترى وسيلة أخرى للامتياز وللحصول على العمل والجاه سوى هذه الاوراق والشهادات . . كل ذلك على حساب القيمة الحقيقية ، قيمة العمل المنتج . بهذا تعمقت في تراننا وقويت قيمة الشهادات والمؤهلات باعتبارها وسيلة تصنيف الطبقات الى جانب الثروة .

وبرغم هذه القيمة المتخلفة فقد ظل التعليم مسرحاً للصراع ، وسلاحاً فورياً في يد الوطنيين ضد سلطة الاستعمار والاقطاع . . كان هدف الوطنيين دائماً توسيع الفرص حيث يضيّق الاستعمار على التعليم ، ونشره واداعته بكل السبل ، وتأكيد مكانة اللغة القومية والمناهج القومية ضد طفيان اللغة الانجليزية والمناهج الاستعمارية . . ولا زالت مقالات ظه حسين على صفحات جريدة السياسة فســــــــــــــــي العشرينيات ، وغيره كثيرين ، وكتابه «مستقبل الثقافة في مصر» صفحات مشرقة في تاريخ الكفاح التعليمي والفكري ضد المستعمر .

ولكن المعركة في العشرينيات والثلاثينيات كانت سافرة بين الاستعمار والوطنيين ، محورها نشر التعليم او تضييقه ؟ اللقــــــــــــــــة الانجليزية ام العربية ؟ الثقافة الوطنية ام الثقافة الاستعمارية . . اما بعد الحرب العالمية الثانية ، واحتدام الصراع الطبقي ، وبروز دور الطبقة العاملة في الثورة المصرية ، وتعاظم دور الجماهير الشعبية ، ومن الجانب الاخر اشتداد مقاومة الطبقات الرجعية العميلة ، والاجنحة اليمينية المعادية للحركة الجماهيرية ، فقد استقطب نيراناً متميزان في التعليم : احدهما تبنته البورجوازية الوطنية المصرية الثورية ، ومعها كل الطبقات الشعبية ، وجسده ظه حسين في شعاره المعروف ، ووضع في التطبيق بمجانبة التعليم الثانوي ، وفتح ابواب التعليم على مصاربعها . . وكان هدفاً تلتقي عنده العديد من المصالح والطبقات . . فهو هدف البورجوازية الوطنية التي تريد الاستقلال والتحرر وبناء دولتها واقتصادها الوطني ، كما انه هدف تلك الفئات من البورجوازية الصغيرة التي لا زالت تسمى الى الشهادات بأي نهن ، ولا ترى غيرها للحصول على الاعتبار الاجتماعي ، وكذلك هو هدف اصيل للطبقات

١ - راجع مقالنا عن التعليم والثورة - مجلة الكاتب العدد ٦٨

نوفمبر سنة ١٩٦٦

اكبر ، وتفتحت الجامعات ، وانشئت جامعة اسميوط ، وبدأ العمل في كليتها العملية في اكتوبر سنة ١٩٥٧ .

ومع بدء خطط التنمية ومشروع السنوات الخمس الاول ، وصدر قوانين التاميم ١٩٦١ ، والاندفاع في طريق بناء الاقتصاد الوطني والصناعة الوطنية المتقدمة ، حدثت طفرة جديدة وكبيرة في التعليم ، وكان الانعكاس المباشر لها في حقل التعليم المجانية الشاملة التي اعلنت في عيد الثورة العاشر . وافتترت هذه الفترة ايضا بدفعية كبيرة في اتجاه تعميم الالزام ، ففقرت الدراسة على فترتين فسي الابتدائي للتغلب على مشاكل العجز في الابنية وهيئات التدريس . كما ففرت ارقام ميزانية التعليم وعدد الطلاب في جميع المراحل . ومراجعة الارقام في صدد هذا المقال وتطورها في هذه السنوات ، بكشف عن الارتباط الوثيق بين الانجازات الهامة في التعليم وانتهاج سياسة وطنية وتقدمية ، وبناء صناعة وطنية ، والمضي في خطط التنمية ، وبناء الاقتصاد الوطني .

ولكن اسماعيل القباني لم يخلف نظاما تعليميا بعينه ، اكتسحه انتصار ٥٦ ، بل خلف مدرسة كاملة من المفكرين الفنيين والتكنوقراط التربويين والخبراء التي سيطر على كل اجهزة التعليم . هذه المدرسة التي سقطت في الماضي في قبضة السراي والرجعية ، اصحت فيما بعد مطية للجنة اليمينية في الثورة التي لا تثق بحركة الجماهير الشعبية ، وتؤمن بافكار الصقوة ، وكان المعبر الصادق عنها داخل وزارة التربية والتعليم الوزير كمال الدين حسين التي استطلعت بظله هذه السياسة الرجعية سنوات طويلة . هذه السياسة تخدم في الاساس الطبقات الجديدة من الفنيين والتكنوقراط والبيروقراطيين والاغنياء الجدد ، الذين يخشون حركة الجماهير ، ويريدون التعليم اداة لتكريس امتيازاتهم الطبقية . هذا التسيار استمر هو المسيطر والمهيمن على رسم سياسة التعليم ، ولذلك طلع علينا سنة ١٩٦٦ تقرير خطير عن سياسة التعليم ، صدر عن اللجنة الوزارية للقوى العاملة . والمفروض ان يرسي التقرير مبادئ اعداد القوى العاملة والتخطيط لها ، القوى الفنية المدربة والضرورية لبناء دولة عصرية ذات مضمون تقدمي في عصر الثورة العلمية والتكنولوجية ، ولكنه في الواقع لم يخرج عن كونه تجسيدا جديدا (وتنفيرا) للفلسفة اليمينية والرجعية التي صاغها في الاصل القباني ومدرسته .

والتقرير يقوم على اساس الحد من تدفق الكتلة الكبيرة من العاملين في اتجاه انواع التعليم الراقية ، ويحدد نسبا للقبسول بمختلف المراحل طابعها التوقف والكف ، وبفهم التخطيط في القوى العاملة ، لا باعتباره اعادة توجيه للقوى بما يتفق واحتياجات اقتصاد نام ومتطور ، بل على انه اقامة قيود وسدود في وجه التوسع فسي التعليم .

والتقرير يستند الى المزاعم القديمة ، والتي ظلت تتردد منذ قبل الثورة عن فيوض الخريجين عندنا في المستويات العليا ، ويسجل جداول وهمية تثبت زيادة الفنيين في كثير من التخصصات ، وحتى في العلميين وخريجي كليات العلوم !! هذا في بلد متخلف ، يشكو اول ما يشكو من ندرة العلم والعقلية العلمية . وقد اثبتت الاحصاءات والاحتياجات العملية فيما بعد فساد الحسابات التي يستند اليها . واكثر من هذا اهمية انه لا يرى في التخطيط سوى اعداد جداول وارقام من البشر لسوق العمل على اساس قيمة واحدة هي العرض والطلب ، ولا يرى على الاطلاق دور الثقافة والتعليم ، وضرورة نشره على اوسع نطاق لاعداد القاعدة البشرية العريضة على مستوى حضاري وفكري يلي احتياجات الثمرة العلمية والتكنولوجية . هذا الفكر لا يزال عميقا قوي الجذور ، تدعمه الفئات والطبقات الجديدة ، وكبار الفنيين والساسة الرجعيين .

ولكنه وحدها في الحقيقة على الورق ، وبدلا من ان يكمل الخطوات التي كان قد اتخذها طه حسين في اتجاه توحيد المدرستين الابتدائية والازلامية ، انتكس بها ، ووضع قانونا ظاهره التوحيد وحقيقته ازدواجية في النظام التعليمي : فقد قسم مراحل التعليم الى ثلاث، ابتدائية واعدادية وثانوية ، ووحد المدرسة للجميع حتى السنة الرابعة الابتدائية ، وبعد الرابعة ابتدع نظام امتحان القبول العسير للمرحلة الاعدادية ، وبذلك اصبح ابناء الامة في سن الالزام من ١٢-١١ يتوزعون بين مدرستين : الابتدائية وهي في حقيقتها المدرسة الازلامية القديمة وتنتهي الى لا شيء ، حتى ولا ورقة ، والاخرى الاعدادية وهي في حقيقتها المدرسة الابتدائية القديمة الممتازة بلقة . الاولى تضم الغلبة الساحقة من ابناء تهم بلغة القباني للحياة العملية في الحقول والمصانع ، ولكنها طريق مستود تماما لا يسمح بمواصلة الدراسة في اي مرحلة ارقى ، والاخرى للقللة الممتازة بلغته ايضا ، وهي الطريق الواسع الى انواع التاليم الراقية . وحقيقة الامر ان الاولى لبناء العمال والفلاحين الذين حكم عليهم بالعمل مدى الحياة دون ادنى حق في مواصلة الدراسة والاخرى لبناء الطبقات الممتازة، للصفوة . ولتبرير سياستها راحت هذه المدرسة الرجعية تثير الضجيج حول الكيف المتدهور في التعليم نتيجة سياسة الباب المفتوح ، ونادت بحق التعليم ومواصلته للقللة من الاذكاء ، وقدمت اختبارات الذكاء وروجت لها ، ولم يكن هذا يعني في التطبيق سوى حرمان ابناء الشعب العامل ، من فرص التعليم الراقى ، والوقوف بكتلة العاملين عند اولى درجات السلم الفكري والثقافي والاجتماعي ايضا .

هذا الفكر وضع في التطبيق وادت القوانين الجديدة الى تقلص واضح ، وتضييق في كل مراحل التعليم وانواعه ، وبالاخص مستوياته ومراحله الراقية ، والتي تبدأ بالمرحلة الاعدادية . وقد اصبحت هذه المرحلة بالذات ، والمفروض ان تكون تتمه لمرحلة الالزام وامتدادا لها ، اصبحت هي وامتحانات القبول العسيرة على ابوابها بمثابة صمام الامان ، و«المحس» الذي يوقف تدفق الجماهير الغفيرة صوب انواع التعليم الراقية . وعلى سبيل المثال فقد اصبح بالمدارس الاعدادية الجديدة (٥٤/٥٢) ٢٤٨،٥٧٤ تلميذا بينما كانت قاعدة التعليم في الابتدائي في نفس العام تضم ١٠٢٩٢،٧٤١ تلميذا ، وفي ٥٤-٥٥ هبط العدد بالاعدادي الى ٢٤٦،٣٧٦ تلميذا بالمقارنة بالقاعدة في الابتدائي وهي ١،٥٨٠،٠٨٩ تلميذا وفي ٥٦/٥٥ اصبح بالاعدادي ٣٢٨،٤٧٠ بينما كان بالابتدائي ١،٤٨٦،٠٩٤ تلميذا وهو ما يكشف عن نوعية هذه المصفاة الطبقية التي اقيمت على ابواب التعليم ، كما يكشف عن مدى ضيق القمة التعليمية التي ترتبت على تطبيق هذا النظام ، هذه القمة التي تعد الفنيين والعلميين والتخصصيين والمتقنين من كل نوع ، هذا في بلد متخلف ، يشكو من امية غالبية ، ولا يملك اكثر من صناعة ناشئة ، واقتصاد تابع لا يزال يكافح من اجل الخلاص من السيطرة الاستعمارية . كان يعني هذا في التطبيق الاخذ بمبدأ كرومر في فتح الكتابات بدل الجامعات !!

ولكن احداث سنة ٥٦ الكبرى ، والمعركة المجيدة التي خاضها الشعب ، وبالتحديد جماهيره العاملة ، جاءت لتكتسح مثل هذه السياسات . كان من المستحيل ان تصمد هذه السياسة الرجعية في الوقت الذي تسترد فيه البلاد سيطرتها على امورها ، وتمصر المصالح الاجنبية ، وترسي اساس اقتصاد وطني مستقل ومتقدم ونام ، وتخطط للتوسع في استغلال الثروات القومية .

ففي اعقاب النصر سنة ٥٦ قضى على جوانب هامة من القوانين القباينية : توحدت المدرسة الابتدائية لجميع الاطفال من سن ٦ - ١٢ وقضى على مظاهر الازدواجية والثنائية في التعليم بالصورة الصارخة . وبدأت الحياة تدب من جديد في النظام التعليمي المجدد ، وتكسر العديد من القيود والسدود : تفتح التعليم الثانوي من جديد لاعداد

## في المحتوى والمضمون

الناصرية كثورة وطنية تقدمية ، تعادي الاستعمار وبؤمن بالتغيير الاجتماعي وتهدف الى بناء الدولة الوطنية العصرية . . انعكست بوضوح في مناهج التعليم . . ولا شك ان الكثير من التغييرات التي طرأت على المناهج في سنة ١٩٥٧ عقب هزيمة العدوان ، وفي ٦٢/٦١ ثم المناهج المطورة ٦٨/٦٧ كلها تعكس المفاهيم الوطنية المعاديسية الامبريالية وسياسة التحرر والسلام والتطلع الى التغيير الاجتماعي والعدالة الاجتماعية ، والعداء للطبقات القديمة الاقطاعية والرأسمالية العميلة ، كما تعكس الطموح العلمي ومحاولات ادخال الفكر العلمي والنظرة العلمية في المدارس .

ولا شك ايضا ان تطوير الازهر وانشاء الكليات العلمية بالجامعة الازهرية خطوة هامة في هذا الاتجاه .

ولكن مفهوم الدولة العصرية ، ومستقبل الحركة الثورية ، كان ولا يزال محل صراع حاد وضار ، هو صورة من الصراع الذي لا يهدأ في كل بلدان العالم الثالث في الحقيقة ، وبالاخص في الدول الوطنية الثورية ، صراع بين تيارين في الحركة الوطنية : تيار تقدمي يعبر عن المصالح الحقيقية للشعب العامل والمثقفين الثوريين وفتاعات واسعة من البورجوازية الصغيرة الثورية ، وهو يرى بوضوح ان طريق الرأسمالية والنمو الرأسمالي في الدول النامية طريق مسدود تماما، كما يرى حتمية التحول في الطريق الاشتراكي اذا ارادت هذه الدول ان تسير بخطاها الى الامام وأن تحقق حلمها في الدولة العصرية المتقدمة . . ومن هنا فمفهوم هذا التيار عن الدولة العصرية وعسن التقدم هو مفهوم اشتراكي في الاساس ، ومضمون الدولة التي تتطلع اليها والتقدم هو مضمون ثوري اشتراكي .

اما التيار الثاني فهو المعبر عن القوى والاجنحة اليمينية الرجعية والمصالح الرأسمالية النامية والطبقات الجديدة بوجه خاص ، والتي تعادي حركة الجماهير الشعبية ، والديموقراطية ، وتظف هذا العداء وتستره تحت مظاهر العداء للشيوعية ، وهي في الحقيقة تعادي الاشتراكية العلمية ، وتعادي التقدم الاجتماعي ، وتسمى الى عرقلة الحركة الثورية والوقوف بها عند حدود مصالحها الطبقة الضيقة ، فتتزعج الى الجمود والحفاظة ، وتتطلع على الدوام الى النموذج الغربي الرأسمالي والامريكي على وجه الخصوص في بناء دولتها العصرية ، ولا تتصور هذه الدولة الا في الاطار الرأسمالي . ولذلك فهذا التيار مهان ، يتحلب ربه الى المصالحة والاتفاق مع الاستعمار الجديد . سمة هذا التيار الاساسية التهاند والعداء الشديد للحركة الجماهيرية ، ومن ثم يعادي النظرة الاجتماعية العلمية ، التي تعمق وعي الجماهير الشعبية بحركتها التاريخية .

هذا الصراع المحتدم بين التيارين في كل سني الثورة ، اعطانا ايضا تيارات وسطا ، ومحاولات للتوفيق وتهذئة الصراع ، وسياسات سمها التذبذب والتموض و فقدان الاتجاه .

هذا الصراع الاجتماعي كله ينعكس في الحقيقة وبعهق فسي محتوى التعليم ومضمونه ، في المناهج والخطط الدراسية : ولكن السيطرة الحقيقية داخل اجهزة التعليم كانت على الدوام للاجنحة اليمينية ، وفكرها دائما اكثر سيطرة على الفنيين والتكنولوجيا التربويين ، وذلك بتأثير النفوذ العميق لفكر القباني ومدرسته المعبر عن التيار الامريكي في التربية ، وبالتأثير الاشد للتراث الرجعي والحفاظ والذي ظل مسيطرا على هذه الوزارة في اكثر تاريخها وقد ارسى دعائمه بناية ووعي كرومر ودنلوب والمدرسة الانجليزية والاحزاب الرجعية القديمة .

اما مناهج المدرسة المصرية فهي انعكاس ومرآة لهذا الصراع كله ، وهي تنهزق تحت وطأته ، ويفقد واضعو المناهج والكتيب

الدراسية ، وهم في حملتهم وطنيون مخلصون ، ومهنيون امناء على مهنتهم ، الاتجاه . ونتيجة العزلة الشديدة المضروبة على حركة المعلمين ، وارهاب العداء للشيوعية ، ووطاة النقابة الرجعية التي حرص على تكوينها برسم وتخطيط الوزير الرجعي كمال الدين حسين ، وحشدتها بكل صنوف التخلف والجهود الفكري ، بل و ببعض العناصر التي خدمت احزاب السراي ، لهذه الاسباب كلها فالفكر اليميني خاصة في الحقل الاجتماعي ، وفي النظرة الاجتماعية هو الغالب على واضعي ومخططي المناهج وكذلك على مؤلفي الكتب .

فالمناهج ينعكس فيها بلا شك الفكر الوطني المعادي للامبريالية ، وسياسات التحرر الوطني والسلام ، ولكن الفكر الاخر المعادي للاشتراكية ، تحت رداء العداء للشيوعية ، يجد طريقه ايضا الى نفس الصفحات ، وجمع المنهج الواحد ، والكتاب الواحد بين معاداة الاستعمار والدعوة الى معاداة الشرق والقرب كليهما معا ، ذم الاستعمار والامبريالية ، وذم الشيوعية ايضا ، فضح السياسة الامريكية الاستعمارية ، ونمجد نموذجا وفكرها في نفس الآن . . الدعوة الى الفكر العلمي والاخذ بالمنهج العلمي وسيطرة الفيينيات والفكر المتخلف من الناحية الاخرى . ونحيل القارئ على مناهج وكتب اللغة العربية والمواد القومية والاجتماعية ، والفلسفة والاجتماع ...

ونستطيع ان نتيين بوضوح ، بمراجعة سريعة لمناهج وكتب اللغة القومية والمواد القومية وبالاخص التاريخ والجغرافيا والفلسفة الاجتماع الطابع الوطني المحدود الذي يسيطر عليها ، والذي يقف عند حدود مفهوم الثورات الوطنية في القرن الماضي او بداية القرن العشرين على اكثر تقدير ، ويحتسب داخل الاطار البورجوازي ولا يستطيع ان يعبره الى فكر القرن العشرين ، الفكر الثوري التقدمي والعلمي ، والذي يلاحم بين الفهم الوطني والتحليل الاجتماعي والطبقي. لا زال فكر العشرينيات والثلاثينيات بالاخص الاجتماعي هو المنظور الغالب في الادب العربي والمواد الانسانية والاجتماعية .

وهذه في الحقيقة هي العلة في عزلة هذه المناهج وفشلها وضعفها وانصراف الطلاب عنها ، وعجزهم عن التجاوب معها ، بسلك الظواهر التي يعترف بها ويشكو الجميع .

اما التربويون ، والفنيون ، والتكنولوجيا داخل الوزارة فلا يرون العلة الا في عجز الوسائل التربوية الحديثة ، ويضعون العلاج دائما لربط المناهج بالحياة في استخدام اساليب التربية الحديثة وطرفها ، والتقنيات الحديثة في الميدان التربوي بالتوسع فسي استخدام السينما والاذاعة والتلفزيون والوسائل والاجهزة السمعية والبصرية ، وكلها بلا شك مطلوبة ومفيدة . ولكن الشيء الذي لا يستطيعون ان يروه لعزلتهم السياسية والاجتماعية . . ان وسائلهم الحديثة هذه كلها لا تجدي ولن تجدي مع المناهج والكتب في وضعها الراهن . لان كتب التاريخ والجغرافيا والفلسفة والاجتماع والمجتمع العربي تقف عند مفاهيم القرن الماضي ، وعند الثورة الفرنسية والانجليزية والامريكية وتقدمها نموذجا للثورات في العالم !! فلا تستطيع ان تقدم للتلاميذ الاجابات على تساؤلات العصر وفضاياه التي تطرحها اليوم ثورات آسييا وافريقيا وعلنا المعاصر ، ومن ثم لا نستطيع ان تحرك عقولهم او قلوبهم ، او ترتبط في قليل او كثير بواقع حياتهم وشواغلهم . هذا هو الجذر الدفين لعزلة المناهج عن الحياة ، وليست هي عزلة عن وسائل التربية الحديثة او قصورا في استخدامها ، كما يتخيل التربويون والفنيون . . نفس القضية بالضبط التي تواجهها ايضا في الحقل الثقافي ، في الكتاب والصحافة وعلى خشبة المسرح ، وشاشة السينما . الاعمال التي تعجز عن شد انتباه الجمهور ، او اثاره اهتمامه وفكره هي الاعمال التي تقصر عن طرح قضايا العصر او تفهم ابعادها الحقيقية . العلة في الاساس في المضمون رغم اهمية

الشكل .. وسيظل الفكر العزول والمتخلف عن العصر لا يحرك عقلا ولا قلبا ، لا في الكبار ولا في الصغار .

وتحت تأثير الفكر المتخلف والبراجماتي على وجه الخصوص الذي يريد العلم بلا فلسفة ، والتجريب بلا نظرية ، وهو الفكر السذبي اشاعته المدرسة القبايية البراجماتية ، تحت هذا التأثير تتراجع المواد الانسانية الى الوراء ، ولا تحتل الدور الذي ينبغي ان تقوم به في بناء وعي المواطن ونظريته . ولذلك فمن السمات الاساسية في خطط الدراسة سواء في التعليم العام او الفني ، قلة الدروس المخصصة للعلوم الانسانية . ففي خطة الدراسة في التعليم الثانوي العام تقف مناهج العلوم الانسانية عند الصف الاول لتستمر فقط بالقسم الادبي ، وتستبعد تماما من القسم العلمي ، فيما عدا درس واحد للتربية القومية ، وحتى هذه المادة بدأت تناهيها الانواع .. ولا مكان في قسم العلوم الذي يضم الاغلبية الساحقة من الطلاب مواد التاريخ او الجغرافيا او الفلسفة .. وبذلك يعزل التكوين العلمي للطالب، عن تكوينه الانساني، وبناء وعيه ، مما يضعف تكوينه العلمي نفسه .

وفي المدارس الثانوية الفنية تشمل الخطة المواد الثقافية العامة في حدود الصف الاول فحسب .

المناهج بهذا الوضع تعبير عن الفهم التكنوقراطي المتخلف، وعقلية الفنيين المتخصصين العزولين عن العمل السياسي والحركة الاجتماعية. وتكتفي بهذا القدر في هذا الموضوع الخطير الذي يحتاج الى التعمق حتى في التفاصيل . (١)

ولكن قضية محتوى التعليم ومضمونه ، يجب ان ينظر اليها من زاوية اخرى ، فان صياغة العقلية العلمية والنظرة العلمية التي ينبغي ان تكون هدف التعليم والمناهج لا تأتي من المدرسة وحدها بالطبع ، بل تأثير البيئة والوسط المحيط ابعدها اثرا وقد يلغى دور المدرسة الفناء . فماذا اذا كانت اجهزة اعلامنا وصحافتنا تروج للفيبيات والادهام ، وبعض صحفنا تفرد صفحات كاملة للعسلاج بالبندول وبالارواح ولتنبوءات المنجمين ، تفتش عن مصير معركتنا مع العدو المدجج بالعلم والتكنولوجيا .. ان نفس الفئات اليمينية الرجعية والمعادية للاشتراكية والتي تسيطر على القرية وعلى مراكز الفكر والثقافة الحساسة في المدينة ، لا تشجع جوا ملبدا بالادهام والفيبيات . ان ازالة نفوذ هذه الطبقات المعادية وضرب سيطرتها ، شرط لازم لنجاح المدرسة في ارساء تقاليد الفكر العلمي والتقدمي .

## الاصلاح ام الثورة في التعليم (٢)

قضايا التعليم تلح الحاحا شديدا ، وهناك شعور عام بالفشل،

(١) للقارئ الذي يرغب في المزيد ان يعود الى الدراسة المقدمة الى المركز العربي للدراسات السياسية والاقتصادية عن « قضية التعليم والثورة » والذي نشر بمجلة الطليعة اكتوبر سنة ١٩٦٨ - وكذلك « تهافت الفلسفة الرجعية » مجلة الكاتب فبراير سنة ١٩٧٠ .

(٢) راجع مقالنا « الاصلاح او الثورة في التعليم » مجلة الكاتب

نوفمبر سنة ١٩٦٨ .

واحساس بالتدهور الشديد في مستوى التعليم ونوعيته .. والحلول التي تقدم لمشاكل التعليم وقضاياها لا نحصى ، ومحاولات الاقدياس والنقل من النظم التعليمية في البلدان الاخرى لا تتوقف .. ومع ذلك فهذه الاحاسيس والشاعر لا تكف .

والحقيقة ان الاوضاع التعليمية في مصر بعدد كل الرحلة التي قطعتها تشير بقوة فضيحة الاصلاحات الجزئية وجدواها .. وفضيحة الثورة في التعليم وما نعنيه ؟

ولناخذ على سبيل المثال قضيتين ، قوميتين بحق ، ويقعان في حذر كل القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وهما : قضية تعميم الالتزام ، وقضية محو الامية .. والقضيتان مرتبطتان اشدد الارتباط .

الجهود التي تبذل للانتهاء من تعميم الالتزام ، والاموال التي تنفق كبيرة حقا ، وكان المخطط في الاصل ان يتم الانتهاء من هذه القضية تماما في عام ١٩٧٠ ومع ذلك فان الهدف لم يتحقق بعد ، ولا زالت نسبة الاسنياع بالمدارس الابتدائية لا تتعدى ٨٠ بالمئة في المدن الكبرى . هذا على الورق ، وهي في حقيقة الامر اقل من ذلك بكثير خاصة في الريف . وبزبدها ضعفا ما يسمى بظاهرة التسرب ، ويقصد بها تبدد تلاميذ المدرسة الابتدائية خلال سني الدراسة ، وهجرانهم لصفوفها بعد تسجيلهم رسميا بها على الورق . وتقدر بعض التقارير الرسمية نسبة التسربين والذين لا يواصلون الدراسة حتى نهاية الالتزام بما يصل الى ٩ بالمئة وهو في الحقيقة تقدير متفائل ، اما بعض التقارير الاخرى ، فتؤكد ان الفصل المسجل بقوائمه رسميا اربعين تلميذا لا يتعدى الحضور فيه العشرين تلميذا في الكثير من القرى .

ولا شك ان القصور في استيعاب كل المزمين ، الى جانب هذه النسبة الكبيرة المتسربة ، تخلق مباشرة موارد متجددة للامية . والامية بدورها رغم كل الجهود التي تبذل ، وكل القوانين التي تصدر ، واخرها قانون جديد لمحو الامية صدر اخيرا ، لا زالت ثابتة عند نسبة ٧٠ بالمئة وقد تصل الى ٨٠ بالمئة بين النساء ، وهو واقع اجتماعي واقتصادي وسياسي خطير ، لا يجوز السكوت عليه . ذلك ما يطرح اسئلة ملحة تضغط على العقول صغفا شديدا :

لماذا هذا الفشل بازاء مسائل قومية بهذا الخطر .. وما العلاج اذن ؟ ويبحث البعض عن الحل في نجارب البلدان المتقدمة .. ويرجعه البعض الى قصور فينا .. والواقع ان الاسباب والعلاج اعقق وابعده .. ويمكن في فهمنا دائما لقضية التعليم في ارتباط لا ينقسم عن حركة الثورة .. وعن الطرق الذي اختارته لمسارها .

ونترك جانبا الاسباب المباشرة في تفاقم قضية الالتزام في البلدان المتخلفة عموما ، وهي الانفجار السكاني الى جانب ارتفاع نسبة الاطفال في سن الالتزام من ٥ - ١٤ بالقياس الى من هم في سن العمل ، وذلك كظاهرة عامة في كل البلدان المتخلفة ، وهو الامر الذي يزيد من فداحة الحمل على هذه البلدان . نترك هذه الاسباب ونتفحص الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية الراهنة في الريف لزيد من الفهم لابعاد

المشكلة . ونبدأ بخريطة توزيع الملكية قبل قوانين الإصلاح الزراعي وبعبارة :

قبل صدور قانون الإصلاح عام ٥٢		بعد صدور قانون الإصلاح عام ٦١	
حجم عدداً للملاك	النسبة المئوية للملاك	حجم عدداً للملاك	النسبة المئوية للملاك
٢٦٤٢	% ٩٤٤٣	٢٨٤١	% ٣٥٤٤
٥ فدان	% ٢٤٨	٧٩	% ٨٤٨
١٠ فدان	% ١٤٧	٤٧	% ١٠٤٧
٢٠ فدان	% ٠٤٨	٢٠	% ١٠٤٩
٥٠ فدان	% ٢٠٤٢	٦	% ٧٤٢
١٠٠ فدان	% ٠٤١	٣	% ٧٤٣
٢٠٠ فدان فأكثر	% ٠٤١	٢	% ١٩٤٧

الا ان كتلة الاميين في الحقيقة زبد بسبب الزيادة السكانية هذه الامية المتفشية ليست مجرد وصمة عار في عصرنا ، بل هي ايضا ثقل خطير يضغط على الانتاج . فالتجارب التي اجريت في مركز تنمية المجتمع العربي بمرس اللسان (٢) فضلا عن الحقائق القاطعة التي شتمها الدراسات العالمية ، تدل على ان التعليم البسيط الذي يحصل عليه العامل خلال عام واحد يزيد من نتاجيته بنسبة ٣٠ بالمائة واذا اخذنا متوسط الاناجية للمشتغل كما تدل عليه احصاءات ١٩٦٥ وهي كالآتي :

الزراعة	١٩٦٥	جنيه
الصناعة	١٦٨٥٥	جنيه
الكهرباء	٢١٧٢٤٢	جنيه
التشييد	٥٢٤٤٩	جنيه
الخدمات	٤١٨٤٤	جنيه

واذا قدرنا عدد المشتغلين في العام المذكور ب ٧٠٣٣٣٠٠٠ منهم حوالي ٦٠ بالمائة اميين ، فعملية حسابية يتضح ان الانتاجية الضائعة بسبب الامية لدى اكثر من نصف المشتغلين تزيد على مائة مليون جنيه سنويا (٣)

هذا الواقع المؤلم للقوى العاملة في بلادنا ينعكس مباشرة في الانتاج وتكشف عنه الارقام التالية :

في عام ١٩٦٦ - ٦٧ لم يزد معدل نمو انتاجية العمل في القطاع الصناعي على ٢٤١ بالمائة وهذا المعدل يقل عن مثيله في الدول الاخرى في الشرق والغرب . فانتاجية العمل في الدول الاشتراكية زادت بمعدل ٦٤٨ بالمائة سنويا وذلك في الفترة ما بين ٥٨ - ٦٣ وفي الدول النامية في شرق وجنوب اسيا معدل الزيادة في انتاجية العمل % ٣٠٤٤ (٤) في الفترة ذاتها . ولا شك ان هبوط انتاجية العمل عندنا تتدخل فيه العديد من العوامل والاسباب . ولكن يقف على رأسها الامية ، ونقص الخبرة والعجز في الكوادر الفنية المدربة المطلوبة على مختلف المستويات .

وحسب تقديرات الجهاز المركزي للتعبئة والاحصاء نقرأ التقديرات التالية عن زيادة انتاجية العمل خلال الخطة الخمسية الاولى بالقياس الى سنة الاساس ٦٠-٥٩

- ٢ - « الامية والاشتراكية وخرجو الجامعات » الاهرام الاقتصادي ١٥ سبتمبر سنة ١٩٦٨ .
- ٣ - الاهرام الاقتصادي ١٥ سبتمبر سنة ١٩٦٨ .
- ٤ - الاهرام الاقتصادي ١٥ مايو سنة ١٩٦٨ .

من الواضح انه برغم الضربات البعيدة التي وجهها الإصلاح الزراعي للاقطاع ، فلا زالت الكتلة الكبيرة هي من فقراء الفلاحين الذين يملكون اقل من ٥ افدنة ، وهم يمثلون في الريف ٩٤٤١ بالمائة من الملاك ، ولم تزد ملكيتهم من الارض بعد الإصلاح الزراعي الاخير في ٦١ عن ١٤٠٩ من الفدان في المتوسط . ونستطيع ان نتخيل بالطبع حال الفلاح الذي تدور ملكيته حول الفدان الواحد ، فالغالبية الكبيرة من هؤلاء يضطرون الى بيع قوة عملهم وعمل اولادهم الاخرين . فاذا اضفنا الى الصورة ١٤٣٠١٤٩٤٥ من الاجراء العمديين ، حسب احصاء ١٩٦٠ وهؤلاء يعتمدون اعتمادا كاملا على قوة سواعدهم ، وعلى بيع قوة عمل ابنائهم بالذات ، كمصدر اساس للرزق ، عندئذ تتكامل لدينا الصورة عن عدد الاطفال الذين لن يخضعوا للالتزام مهما كانت العقوبات ، ومهما وفرنا لهم من امكنة ، طالما تعارض الالتزام ولقمة العيش الضرورية .

فاذا فحصنا نسبة قوة العمل الى جملة السكان موزعة حسب فئات السن لعشرنا على هذه الحقيقة مجسدة :

فئات السن	١٤-٦	١٩-١٥
المحافظات الحضرية	٦٤٧	٣٠٤٧
جملة الحضر	٥٤٣	٢٤٤٣
الريف	٢٠٤٧	٤٩٤٢
جملة الجمهورية	١٤٤٧	٣٩٤٣

فالجداول السابق يوضح ان نسبة الاطفال الذين تضطروهم ظروفهم الى بيع قوة عملهم بين سن ١٤-٦ لا تقل عن ٥ بالمائة واكثر من ٢٠ بالمائة من اطفال الريف . هؤلاء سينقطعون عن المدرسة بالضرورة او يتسربون ، ومقضى عليهم في الاغلب بالامية . ولا تجدي في هذا لا القوانين ولا العقوبات ولا الغرامات .

واذا اخذنا في الاعتبار ايضا ان متوسط اجر المشتغل بالزراعة هو ٤٤٤١ اي ما يقرب من ٣٤٥ جنيه شهريا لادركنا استحالة تطبيق الالتزام في الريف بحالته الراهنة .

قضية الالتزام اذن هي بعينها قضية انجاز مهام الثورة في الريف ، بمعنى تغيير علاقات الانتاج القائمة ، وتقل مستوى الفلاح الفقير والمعدم واخراجه من الوضع الراهن .

فاذا نظرنا الى الوجه الاخر من الصورة ، الى قضية الامية لتأكدت لدينا نفس الحقيقة .

فعلى الرغم من تراجع نسب الامية بين احصاءات ٣٧ و ٤٧ و ٦٠

(١) الكتاب السنوي للاحصاءات العامة ج.ع.م ١٩٥٢ - ١٩٦٦ الجهاز المركزي للاحصاء

تطور متوسط الانتاجية للمشتغل خلال الخطة الخمسية الاولى  
٥٩ - ٦٠ الى ٦٤ - ٦٥

القطاع	نسبة الزيادة في السنة الخامسة عن نسبة الاساس
الزراعة	٪٩٤٧
الصناعة	٪٩٤٠
الكهرباء	٪٢٩٤٤
التشييد	٪٤٤٩

كل هذه الارقام نصب في حقيقة واحدة ، هي استحالة احداث الثورة الانتاجية ، ومن ثم انتصار الثورة الاجتماعية والسياسية والفكرية ، دون تحول اساسي في حالة القوى العاملة التعليمية والثقافية ، وبالاخص في مستوى القاعدة العريضة من قوة العمل .

والوجه الاخر للعملة الذي ائبنتاه ، ان اي تغيير اساسي في حالة القوة العاملة التعليمية والقضاء الحقيقي على الامية يستحيل ايضا دون المضي في نفس الوقت في تحقيق الثورة الاجتماعية في الريف . فكل العاملين يشد احدهما الاخر ، ومجرد الرجوع الى الجدول السابق عن توزيع الملكية في الريف يكشف لنا عن هذا الانس المتبادل .

فلاحصائية تثبت ان نسبة من يملكون اقل من ٥ فدادين في ريفنا لم تتغير قبل تطبيق اصلاح الزراعي وبعده ، وعدد المدمين يزيد بسبب معدلات الزيادة في السكان ، مع عدم تزايد مساحة الارض بنفس النسبة ، ومعنى ذلك ان كتلة الفلاحين الفقراء في القرية لازالت على حالها وانساعها . هذا من ناحية ، ولكن ضرب الاقطاب لازمته حقيقة اخرى هامة هي ارتفاع نسب الملاك بين ١٠ و ١٠٠ فدان ، وكذلك في مساحات الارض التي يملكونها . ومعنى ذلك ان حزب الاقطاع لم يضعف ، بل على العكس قوي ودعم مراكز اغنياء الفلاحين . وقد تكون هذه الفئات وطنية بالمقارنة بالاقطاعيين ، ولكنها بحكم اوضاعها الاجتماعية وترانها ، هي فئات نهمة ! استغلالية ، شديدة الرجعية اجتماعيا وفكريا . وهي في حقيقة الامر الفئة القابضة والسيطرة على الريف ، وعلى اقتصادنا الزراعي منذ الثورة . وهي بعينها التي تسيطر على التعاونيات وتحزبها وتحولها الى حسابها ، وهي تمارس نفوذها وسطوة شديدة في الريف .

كيف تصور اذن امكانية تنظيم ونجاح حملات محو الامية ؟ مع بقاء سيطرة هذه الفئات التي تعادي حركة الفلاحين عداء شديدا ، وتخشى كل الخشية من هذه الحركة ، ومن تسرب الوعي الى صفوف الفلاحين .

الصورة المقابلة هي التي حدثت في البلدان الاشتراكية . فمحو الامية تم بنجاح تحت نفس الشعار الذي حرر الفلاحين ، شعار الارض لمن يفلحها . . ولان الفلاح المدمم اصبح هو سيد الارض ، وهو صاحب المصلحة في تطوير انتاجيته على اساس علمية . . فليس بغريب ان يقبل على محو الامية ، بل وبشارك بحماس في تنظيم حملاتها ويقودها . . والانتظام في صفوف الدراسة بالنسبة لهذا الفلاح ليس ترفا زائدا ولا عبئا ثقيلا يضاف الى عبء عمله واستغلاله وانهاكه من قبل الاخرين . ان قضية محو الامية في الريف ، ليست قضية تعليمية بالدرجة الاولى ، ولا قضائية وسائل تقنية في التعليم او قوانين ، بل هي قضية الثورة وتقدمها . . تلك الثورة التي لم تصل بعد الى حياة ريفنا .

وحتى تزاح سلطة الفئات الاجتماعية الرجعية المسيطرة ، واجهزتها المنفذة ، والتي تعوق اي حركة حقيقية تجسدها تنوير الفلاحين ، وحتى تتقدم الثورة في الفلاحين الى مواقع ابعد ، ويخرج

الفلاحون من اكواخ الطين ، وتتغير اساليب عملهم وحياتهم ، التي لا تتطلب اليوم علما ولا معرفة بل يكفي فيها الموروث ، ولا تتحدى فيهم شعورا ، ولا تثير احساسا بالعجز امام الجديد ، حتى يتم ذلك التغيير ويتحول محو الامية الى جزء منه ، ستمثل كل الجهود محدودة الثمرات . . وسينظر الفلاح الى محو الامية كترف لا يطلبه ولا يقوى عليه ، هو ثقل يضاف الى اثقال حياته الراهنة .

لقد نجح الاتحاد السوفياتي ، كما نجحت الصين وكوبا . . وحقت هذه البلدان نتائج باهرة في محو الامية . . لانها نظمت حملات قوية ، وبذلت جهودا مفضية فادتها احزابها الشيوعية . . هذا صحيح . . ولكنها نجحت اولا واخيرا لانها احدثت ثورة . . ولان محو الامية فيها اصبح وجهها لانصار الثورة الاشتراكية . . تلك هي القضية .

## قضايا . . ومشكلات

قضية التعليم في بلدان العالم الثالث أصبحت هي قضية التقدم ، وهي اختيار طرق الثورة ، وفتح الطريق على كل محاولات السير في طرق الرأسمالية المسدود . . والمشكلات الرئيسية التي طرح اليوم .

- ١) مشكلات المستوى والعائد من العملية التعليمية ونوعية التعليم
- ٢) ومشكلات الفصول في مراحل التعليم والهرم التعليمي
- ٣) ومشكلة هيكل البناء التنظيمي للتعليم
- ٤) ومشكلة المحتوى والمضمون في التعليم
- ٥) ومشكلات المعلم وحركة المعلمين .

كلها مشكلات تتشابك ، ولا تنفصل عن قضايا الاقتصاد والاجتماع والسياسة ، وهي عصب مشاكل التنمية وبناء الدولة العصرية المتقدمة والصراع الدائر حولها ، ليس صراعا فنيا ولا هو صراع بين اهل الاختصاص ، بل هو صراع في حقيقة الامر حول مفهوم هذه الدولة وطريقها ، بين تيارات الحركة الاجتماعية في انساعها وواجنتها داخل حركة الثورة في هذه البلدان .

ولناخذ اخطر هذه المشكلات ، او ما يبدو اخطرها ، والتي تفرض نفسها فرضا وبالبحاح ، وهي مشكلات كيف في التعليم كما يحلو للبعض سميها وضعف العائد والتوعية الهابطة التي يشكو منها الجميع .

والامر الذي لا جدال فيه ان توعية التعليم قد هبطت بالفعل وبشكل ملحوظ في السنوات الاخيرة ، الى الحد الذي يخرج معه التلميذ بعد سني الالتزام لا يكاد يقرأ او يكتب . وفي مراحل التعليم الاخرى ندل نتائج الامتحانات على فاقس كبير ، والبروس الخصوصية أصبحت هي الوسيلة الوحيدة التي يملكها الاباء لضمان النجاح او المرور في اي مرحلة ، والكتلة الكبيرة لا يمكن ان تملك هذا السلاح الباهظ التكاليف ، فمصيورها في الاغلب متروك للقدر . والجامعات ايضا تشكو من ضعف مستوى الثانوية والمؤسسات بدورها ومواقع العمل تشكو بدورها من خرابجي الجامعات !! ما هي الاسباب ؟ وما هو العلاج ؟

اما الفنيون ، والتكنولوجيا التربويون فتقف الرؤية عندهم عند حدود الفن التربوي ، ومن ثم يخرطون في تغييرات لا تكف في المناهج والكتب ، ما بين حذف وازافة ، وهكذا دواليك . . !! وبحيث في طرق التدريس ووسائله التقنية !! ثم الفاء اللوم اخر الامر على المعلمين والمعلمات بشكل اخص . والاهم الدعوة الى الحد من التعليم ، بدعوى تضخم الكم ، وضرورة توجيه العناية الى الكيف

لماذا ؟

لا شك ان للاسباب والوسائل الفنية دورها ، والتربية علم وفن له مبادئه واصوله ما في ذلك شك ، وعلاج النواحي الفنية ضرورة . .

ومع ذلك فلماذا يفضل العلاج دائما ؟

لان الاسباب ابعد ، والقضية اعمق ترتبط بالكيان الاجتماعي كله ، وقد نجملها في كلمات :

- لان الفصول مكدسة تصل احيانا الى ٦٠ طفلا في الفصل

- والمعلم يعمل عدد ساعات مضنية وباجر لا يذكر ، ويتحمل ما هو فوق الطاقه .. يلقي به في اقصى القرى حتى وبلا ماوى !!

- ولان الاباء من العمال والفلاحين وصغار الموظفين لا زالوا يعيشون في الظروف المادية والفكرية والثقافية ، التي تلفسي دور المدرسة ان كان لها دور ، وتجعل التحصيل والدرس ، استحالة في بعض الاحيان .

- ولان الاطفال الجمهرة العظمى من الفلاحين تضطر الى معاونة ابائهم في الحقل ، ولا يترك لها بقية من جهد ، هذا اذا لم تنقطع عن الدراسة تماما ..

ونستطيع ان نمضي في ذكر هذه الاسباب وغيرها كثير ، وكلها معروفة ، وكلها تصب في حقيقة واحدة هي الاحوال التي يعيشها الشعب العامل وبنائه ، والتي تجعل التحصيل احيانا شبه استحالة .

نقطة البدء في التغيير ليست هي المدرسة ، بل هي احوال الشعب العامل المادية والروحية ، ويصبح اصلاح المدرسة ورفع مستوى الاداء فيها جزءا لا يتجزأ عن احداث هذا التغيير ، ولو خطوة بخطوة .

لا يعني هذا ابدا ان تقف مكتوفي الايدي ، وان ننتظر حتى يتغير الاحوال .. بل معناه ان تعادل القضية وتوضع على قوائمها الصحيحة ، وتأخذ طريقها الى الحل .. وان يتحدد الهدف ، ويتم اصلاح المدرسي داخل هذا الإطار .. اما الاصلاحات الجزئية واليومية ، فهي لا تقف ، ولا يجوز ان تقف ، ويجب ان يقوم بها الاباء والمعلمون وكل مسئول .. وتستطيع التنظيمات الشعبية والسياسية ان تفعل الكثير نحو توفير ظروف التحصيل للفقراء ، والماوى للمعلمين ، والتقوية للضعفاء من التلاميذ ، وحتى الغذاء لمن يحتاجونه .. وهذه مجرد امثلة .. ولكن الاصلاح وهو ضرورة لا يجب ان يحجب الثورة ..

● ولنتأمل الهمم التعليمي لثرى ما وراءه . توزيع طلابنا على مراحل التعليم سنة ١٩٦٨ كان على الوجه التالي :

المرحلة	عدد تلاميذ المرحلة	النسبة الى القاعدة الابتدائي
الابتدائي	١١٩،٢٥٥	١٩٦٨
الاعدادي	٣٠٦،٧٧٥	٢١٤٨ %
الثانوي العام	٧٥،٢٧٦	٧٤٧ %
الثانوي الفني	٥٤،١٩٧	٥٥٥ %
الجامعات والمعاهد العليا	٣٣،١٧١	٤٤٨ %

هذا الضيق في القمة يقف على قاعدة هي اصلا ضيقة نتيجة الامية والمجز عن استيعاب كل المزمين . وبالطبع فان القلة التي تصل الى القمم الرفيعة من المعروف انها الطبقية .. فهي في الظروف السائدة لا يمكن الا ان تكون من ابناء البورجوازية في الاساس .

وتقدم احصاءات اليونسكو عدد الطلاب بالتعليم العالي لكل ...١٠٠ من السكان في بلدان العالم ما يكشف عن الهوة بين التقدم والتخلف : (١) .

٣٤٧١	الولايات المتحدة	٢٢.١	كندا	٥٦٥	م.ع.ج
٩٦١	تشيكوسلوفاكيا	١٣٩٨	اليابان	١٤٨٨	اسرائيل
١.٥٧	يوغوسلافيا	٧١٦	المملكة المتحدة	١٢٣٩	فرنسا

الاتحاد السوفياتي ١٦٦٠  
ومع ذلك فان تقرير اللجنة الوزارية للقوى العاملة عن

سياسة التعليم يرى كما ذكرنا ان الخريجين عندنا حتى من العلميين قد زادوا ، وبركز عدبد من اجهزة الاعلام على تشجيع هجرة حتى المهندسين والاطباء والفنيين تحت نفس المزايم .

هذا الهرم الضيق في القمة افترن بظواهر خطيرة تكشف عن حقيقة القيم السائدة في التعليم ، فقد اصبح من الظواهر المألوفة في نهاية كل عام وقوع العديد من الانهيارات وحوادث الانتحار (٢) خصوصا على ابواب الجامعات . والظاهرة في الحقيقة طبيعية تماما في ظل القيم السائدة ، حيث تحول التعليم الى اداة للامتياز الطبقي ولتعميق الفروق الاجتماعية . واي مراجعة ولو سطحية لسلم الاجور يعطي العذر للمتهربين والمتحجرين الذين تسد في وجوههم سبل التعليم العالي . ففي اعلى القمة الوظيفية تصل المرتبات الى ١٨٠٠ - ٢٠٠٠ جنيه غير بدلات التمثيل حتى بعد تخفيضها ، وفي ادناها الدرجة المالية الثانية عشرة بين ٦٠ - ١٨٠ جنيها ، فاذا اضفنا المتوسط العام لدخل الفرد الذي لا يزال في حدود ٥٩،٨ جنيه حسب التقديرات في اخر سني الخطة الخمسية ٦٤-٦٥ (٣) فان الجامعي الذي يبدأ حياته بالعمل بالدرجة السابعة بمرتب ٢٤٠ - ٤٨٠ جنيها ، رغم ضآلة مرتبه فانه يبدو خيالا بالقياس الى فاع السلم . لقد نعمقت فيمة الشهادات والاوراق على يد الفئات والطبقات الجديدة ، التي لا زالت ترفض قيمة العمل ، كقيمة اساسية .

● اما هيكل النظام والبناء التعليمي فهو يعكس بجلاء تصور الطبقات الجديدة لاداة التعليم ولاهدافه . فقد ظل النظام التعليمي كما كان مغلقا معزولا عن مواقع العمل والانتاج . وبلاضافة الى القيود بين المراحل التعليمية والتي تعوق كما رأينا في الظروف السائدة ابناء الشعب العامل عن مواصلة الدراسة ، فان امكانية دخول غير حملة الشهادات وخريجي التعليم النظامي تكاد تكون مستحيلة . وقد قرر نظام الانتساب في الجامعات في بداية الثورة تحت ضغوط شديدة ، وقصر على الكليات النظرية فحسب ولم يلبث حتى ضيق عليه حتى اصبح في حكم الملقى .

اما البلدان الاشتراكية التي بدأت ثورتها من تخلف شديد ، فقد صنعت بنظامها التعليمي العكس ، اصبح اساسا الانفتاح لا الانفلاق على قوة العمل بالمصانع والحقول ، ولم يعد هناك فاصل بين التعليم النظامي ، والتعليم عن طريق المراسلة ، والفصول المسائية ، ومدارس بعض الوقت وغيرها . واصبحت السياسة الثابتة هي تشجيع الجمع بين العمل والتعليم بكل الوسائل وانواع التيسيرات ؟ بذلك تحول التعليم الى اداة في يد الطبقات المنتجة ، اداة ديموقراطية لتصفية الامتيازات القديمة ، ولتنقل كتلة العاملين من مستوى الامية الى مراكز القيادة والتوجيه والسلطة .

● المعلم ... لم يعد هناك حيز لاستفراد .. ومع ذلك فنحن بازاء القضية الرئيسية .. فان تصور اي تغيير حقيقي في التعليم دون تغيير بعيد في حياة المعلم واوضاعه لا يخرج عن دائرة الوهم .

فالانسان على اي حال ، قبل الآلة ، وقبل النظم ، وقبل السلاح في الحرب . هو الفصل ، وهو العنصر الحاسم . والمعلم المصري باوضاعه المادية والادبية يقع في قاع الطبقة المتوسطة الصغيرة ، واكثر من هذا فقد اصبح نقابة المعلمين اداة صفيط وتجميد لحركة المعلمين وحشدت لها كل الكفايات النقابية الصغراء ، وفي بيئتها تفرخ كل افكار التخلف والجمود والرجعية . ان حل قضية المعلم ونقابته جزء لا ينفصل عن قضية المقرطة الشاملة في الاقتصاد وفي النقابات

(٢) راجع مقالنا لماذا ينتحرون مجلة الكاتب اغسطس ١٩٦٨

(٣) سنوات التحول : علي صبري

(١) الكتاب السنوي الدولي للتربية ١٩٦٩

● النظرية التربوية .. الكلام عن المعلم وتغيير اوضاعه غير بعيد عن النظرية التربوية التي يصاغ بها عقله وفهمه المهني والسياسي . وقد ركز الاستعمار الاميركي بوجه خاص (1) على ميدان التربية والتعليم في مصر وفي كل بلدان العالم الثالث . وقد قامت مؤسسات خاصة فرانكلين بعملية اغراق للسوق العربية بكتبها التربوية ، واختارت ادواتها في هذه العملية من مدرسة اسماعيل القباني ، مدرسة التكنوقراط التربويين ، وهو امر طبيعي فهناك التقاء فكري كامل . ولا زالت تصفية آثار النظرية التربوية البراجماتية ، نظرية الاستعمار الجديد ، واحلال النظرية الثورية في مكانها تحتاج الى كل جهود المثقفين الثوريين .

### الطريق .. والمستقبل .

ان عبء التعليم الى جانب عبء التنمية وهو شقها الاخر ، عبء بالغ الثقل في كل بلدان العالم الثالث ، يحتاج الى تعبئة موارد وقوى مادية وروحية هائلة ، تعجز عنها تماما اي دولة تابعة تربط مصيرها بالامبريالية ، وبطريق النمو الرأسمالي .. وتصبح الدولة العصرية المتوهمة بالمعونات الاميركية وتحت المظلة الاميركية التي تلهث وراءها الطبقات الجديدة اليمينية سراب لا طائل وراءه . ان حسم طريق التحول الاشتراكي ، في هذه البلدان هو نقطة البدء وشرط كل اصلاح جذري لقضايا التعليم وغير التعليم .. وهو شرط قيام الدولة العصرية الديمقراطية المضمون بالضرورة .. دولة الطبقات الوطنية الثورية .

والناصرية كحركة تاريخية ثورية وتقدمية ، من خلق حركات التحرير الوطني الثورية جمعت في مسارها العديد من الطبقات الوطنية والتقدمية التي تعادي الاستعمار وترغب في التقدم ، والاصلاح الاجتماعي وتحلم بالرخاء وباشكال من الاشتراكية قد يطبعها الخيال في كثير

(1) راجع كتابنا « وجه اميركا القبيح في التربية » - دار الكاتب العربي - سلسلة في المعركة ١٩٦٨ .

من الاحيان . ولانها مثلت حلفا واسعا بين العديد من التيارات على الاساس الوطني ، فقد صاحب حركتها صراع شديد ، وانسلاخ فئات طبقية كانت ترى في تقدم الثورة خطرا على مصالحها ، كما سادها في الاغلب ايدولوجية الوسط والتوفيق . ولكن دروس العالم الثالث كله ، تثبت بما لا يدع مجالا للشك ، ان الخطر على هذه النظم والثورات يأتي من داخلها في الاساس ، وان عدوها الرئيسي وهو الاستعمار الجديد يركب على وجه التحديد الأجنحة اليمينية فيها ، ويستفيد من سياسات التردد والضعف . ان تقدم هذه الثورات وامنها وحمائتها ، رهن بهزيمة سياسة الوسط وتصفية مواقع اليمين ، وحسم طريق التحول .

ان الناصرية كحركة تاريخية ثورية وتقدمية مدعوة الى ان تتخطى ذاتها ، هذا اذا جاز التعبير اصلا وقبله القاموس السياسي ، ونعني به هزيمة اليمين بداخلها ، وتصفية مواقع الطبقات الجديدة التي اغتنت واثرت بعد ازاحة مواقع الاستعمار والطبقات القديمة ، والتي تخفي انتماءها الحقيقي وعداءها لحركة الجماهير الشعبوية تحت اقنعة العداة للشيوعية .

ان التحالف الثوري بين قوى اليسار على نطاق العالم العربي كله ، بين اليسار الشيوعي واحزابه واحزاب الطبقة العاملة واليسار العربي والناصرية الوطني هو وحده القادر اليوم على تخطي المرحلة الراهنة التي يمر بها الوطن العربي ، وتوفير الشروط الاولية للانتصار على العدو في اخطر تحد يواجهه هذا الوطن منذ المفول .

اما التعليم فهو اداة من الادوات التي ينبغي ان توضع في يد الشعب العامل ، في اطار من المقرطة الشاملة ، لبروز دوره وقيادته .. ذلك الدور الذي اثبت في كل الازمات التي مرت بشعبونا انه العنصر الحاسم .

اديب ديمتري

القاهرة

## متى يطلع فجر باريس؟

قصة الثورة الروسية

بقلم جان بول أوليفير

ترجمة جوبرج طرابيشي

٧٠٠ ق . ل .

صدر حديثا عن دار الاداب